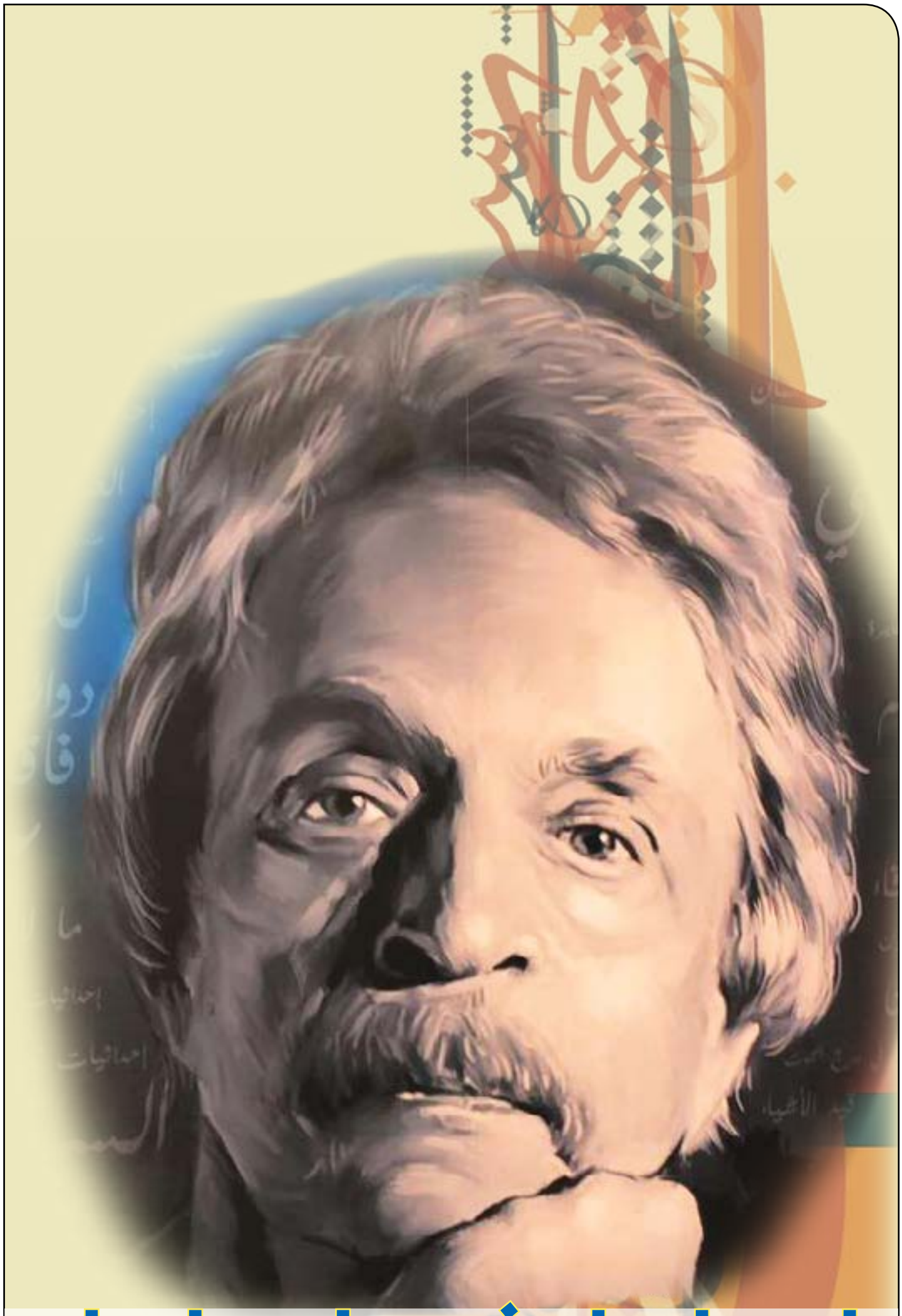

عراقيون
من زمن التوهج
رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم
العدد (4290) السنة السادسة عشرة -
الخميس (11) تشرين الأول 2018
WWW. almadasupplements.com

إسماعيل فهد إسماعيل

2018 - 1940

5-4
الرواية فن مؤثر لأنه يختلي بالمتلقي حتى في سرير نومه

(حبل) إسماعيل فهد إسماعيل الذي انقطع

علي حسين

برز عام ١٩٧٠ مع روايته الأولى "كانت السماء زرقاء" التي حُوّل فيها عشقه للسينما إلى رواية على الورق، فقد كان يطمح أن يصبح مخرجاً سينمائياً، ولأن الظروف التي عاشها لم تساعده في تحقيق أمنيته، وجد في كتابة الرواية تعويضاً، فكتب حكايات أشبه بالفيلم السينمائي، حيث يجد القارئ نفسه وخصوصاً في رباعيته (كانت السماء زرقاء، المستنقعات الضوئية، الحبل، الضفاف الأخرى) بمواجهة كاميرا سينمائية تتولى مهمة الراوي، وتكون دليل القارئ، تكشف له وبلقطات خاطفة وجمل قصيرة مصائر الأبطال، وهو الأمر الذي دفع اسماعيل فهد اسماعيل إلى استخدام الجملة "البرقية" في السرد واستبدال دراما الحدث السينمائي بدراما الحوار سواء الحوار مع الآخر "الدايلوج" أو الحوار مع النفس "المنلوج". حفظ مقولة أرسطو التي كتبها في "فن الشعر" من أن المتلقي قابل لأن يصدق كل ما بعد نقطة البداية.. جعل من عمله الأول أشبه بسيرة ذاتية : "العمل الأول إذا ما لامس السيرة الذاتية سيأتي حميماً، ويصل الى القارئ بسهولة".

أعاد كتابة "كانت السماء زرقاء" ثلاثة عشر مرة قبل أن يجازف ويدفعها للنشر لتصدر بمقدمة كتبها الشاعر صلاح عبد الصبور يبشر فيها بروائي جديد يملك عالماً مدهشاً ببنائه الفني، رواية جديدة هذا ما كان يسعى إليه إسماعيل فهد إسماعيل، رواية تصنع شكلها الخاص، ولغتها الخاصة، لكنها لاتبتعد عن هموم الإنسان وقضاياه اليومية : "أنا شخصياً لا اعتقد بوجود أدب من أجل الأدب فقط، العمل الروائي يجلب فائدة للإنسان بغض النظر عن الظروف، إذ أن الروائي يعطي فائدة مباشرة أو فائدة غير مباشرة".

ولد عام ١٩٤٠ في قرية السبيليات، وهي إحدى قرى البصرة، لأسرة من سبعة أولاد وثلاث بنات، فقد والده البصر وهو في الرابعة من عمره، ولأن الاب يعشق الكتب فقد أصر أن يتعلم ابنه القراءة والكتابة قبل أن يبلغ الخامسة، ليقرأ له كل ليلة كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة سيرة الأميرة ذات الهمة، بعد ذلك تطوّرت الفكرة فراح الأب يقدم ابنه الصغير إلى معارفه وأصدقائه باعتباره حكواتي الأسرة.. قراءة ألف ليلة وليلة كانت سبباً في تمرده على سلطة الأب حيث ترك البيت وهو في العاشرة من عمره، وفي نفس الوقت كانت سبباً في أن تجعل منه راوي قرية السبيليات، حيث كان يجمع الصبية ويروي لهم ما قرأه من حكايات علي بابا، والثعلب المكار، في الرابعة عشرة من عمره جرّب كتابة القصيدة العمودية فنشر في مجلة المعلم الجديد أولى قصائده.

سحرته الوجودية، وأغرم بكتابات البير كامو : "الفترة الزمنية التي امتدت ما بين ١٩٥٠–١٩٦٥ كنت أقرأ كل ما يتعلق بالوجودية والتي كرّست ضغطها على ما كتبته في بداياتي".

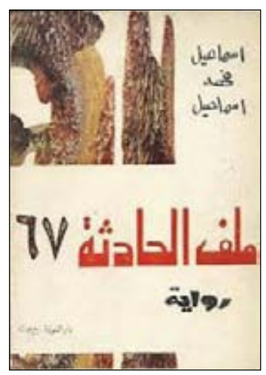

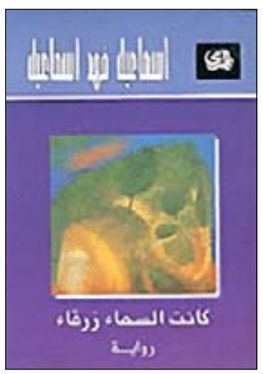

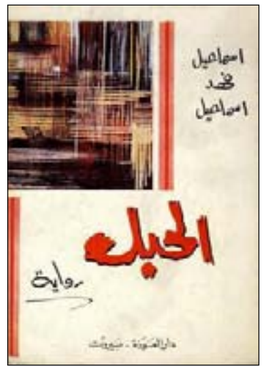

وإذا كان العراق يبدو فضاء روائيا في رباعية إسماعيل فهد إسماعيل الأولى، فسنجده فيما بعد يسعى لتنويع هذا الفضاء، فاذا لبيروت حصتها "رواية الشياح" واذا بمصر تنافس الكويت في "النيل الطعم والرائحة" وسيقى الهم الفلسطيني بارزاً منذ روايته الأولى ومروا بمعظم شخوص رواياته الذين شغلتهم قضية الدفاع عن حق الشعب الفلسطيني في استرداد أرضه، ولهذا نجده عام ٢٠١٧ يستعيد شريط القضية الفلسطينية ليستوقف الزمن في رواية "على عهدة حنظلة" يستذكر فيها اغتيال رسام الكاريكاتير الشهير ناجي العلي.

في معظم رواياته يهتمّ إسماعيل فهد إسماعيل بالتفاصيل العادية الصغيرة التي توحي حياة طبيعية، ويتجنّب الهذر اللغوي في المواقف العاطفية. وسيدمن أيضاً تصدير رواياته بمقدمة قصيرة أو بملاحظة أو إشارة مثلما حدث في روايته الحبل حين أراد أن يوضح للقارئ إن الأحداث تدور عام ١٩٦٢، ولأنه قارئ جيد فقد سحره فوكنر في روايته "الصخب والعنف" فقرر أن يجعل من رواياته جزءاً من غواية الرواية الحديثة : "أدركت بأني بحاجة الى أن أكتب شيئاً مختلفاً، ولهذا قمت بمحاولات اعتبرها البعض محاولات حديثة". في معظم روايات إسماعيل فهد إسماعيل سيرافقنا المثقف اليساري الذي ينتمي الى منظمة سرية، يصر أن يرسم العالم مثلما يتخيله، فها هو الكاتب اليساري المطارد في "الحبل" يقرر في لحظة يأس أن يتحول إلى لص، حيث يتحول الحبل الذي فتن به خلال طفولته الى رمز تتوقف عليه حياته، ولأن الاتهامات تحاصره "سياسي خطير، متآمر" يجده نفسه بلا عمل، فلا مفر من الهرب الى الكويت، وسيصبح بطل رواية الحبل مثل بطلي الروايتين السابقتين "كانت السماء زرقاء، المستنقعات الضوئية" نزيلاً في أحد السجون، وسيرافق القارئ في الجزء الرابع "الضفاف الأخرى" حيث نجد كريم البصري لايكتفي بمناداة الاجزاء الثلاثة السابقة من الرباعية، بل ينادي اللحظات التي يجد فيها البطل نفسه حائراً بين الهيام بافكار الوجودية والالتزام السياسي بالماركسية، وسيكون زمن الضفاف الاخرى ستة ايام حيث يدع لنا الروائي اليوم السابع مبهما، وكانه يريد من خلال البطل ان يعيد حكاية الخلق في مشاهد محزنة ومفرحة، ومع أناس يعيشون مأساتهم الذاتية يقتبسون حكايات من الكتب ويدمون الثورة على الواقع أياً كانت طبيعته

برحيل إسماعيل فهد إسماعيل سينقطع حبل روايات شكلت وجداننا وذائقتنا الفنية، وسنفتقد بغيابه واحداً من القادرين في سطورهم على اختزال وتلخيص هموم الناس وتطلعاتهم، واحداً من جيل الثقافة الوطنية، جيل لم يكن يريد أن يفلت منه شيئاً من دون أن يكون طرفاً حاضراً في ساحته مشهراً سهامه وإضافته.

لم يغب اسماعيل فهد اسماعيل عن النص

ياسين النصير

بالرغم من غياب جسده ورحيله إلى العالم الآخر، يبقى اسماعيل فهد اسماعيل ضوءا ينير درب النص الروائي الحديث. ومنذ "كانت السماء زرقاء" وهو في البصرة القديمة، وإلى أخر نص قرأته له "السبيليات" وهو في الكويت، لم يغب العراق عنه ولا بيئة الجنوب البصرية ولا بساتينها في ابي الخصيب، ولا ثراؤها المكاني. هذا الكائن الثري باصدقائه واسرته ومضافاته، هو أحد الرموز العراقية/ الكويتية، حيث وضع العراق نصب عينيه وجعل منه منهلا لأفكاره ورواياته.

ان من تعرف على "ابي فهد" لم يجد ملاذا اكثر دفئا منه، ولم يجد ذاكرة انقى واصفى من ذاكرته، وكان بالنسبة لي أكثر من صديق وأبعد من روائي، حيث استظل به في رحلاتي الى الكويت، يستقبلني عند حدودها، ويأخذ بنا في مساراتها الليلية.

قد يعجز القلم الآن عن الكتابة عنه، فهو المنجز القريب من النبض الإنساني التقدمي، المعروف بمد يد العون للأدباء العراقيين، والشهم في المواقف حين هاجر العشرات من أدباء العراق. انه يغادرنا دون أن يكمل نصه الكبير، حلمه في ان تكون للثقافة العراقية مؤسسات في كل الأمكنة التي استنشقت هواء العراق، فانبتت ريحانات واشجارًا وشخصيات وأفكارًا. كان يحلم حلم العباقرة الكبار في وحدة للأدب العربي، لا تعزلها حدود، ولا تفصلها لغة، ولا تضع الأنظمة بينها أحجارًا وأسيجة، أدب بهوية كونية. ومن يقرأ رواياته يجد فيها هذا المتسع الكوني: روايات عن العراق وروايات عن مصر، وروايات عن لبنان، وروايات عن الكويت. روايات يستعير فكرتها من التراث العربي القديم وينشئها في البيوت المعاصرة. روايات عن الحرب وعن غزو النظام الفاشي للكويت. روايات عن المقاومة وعن المواقف الوطنية. روايات عن اضرابات العمال في العراق، وعن التاريخ الوطني المشترك. روايات عن النبض الحداثوي في الثقافة العربية.

عندما كان يستضيفني في بيته تنفتح كل افاق العالم، السفر في بلدان مختلفة، الكتب التي ترده للإهداءات، الجولات التي تعرفك على معادن الأصدقاء، المسؤولية التي يضطلع بها تجاه الشباب من الأدباء الناشئين، الرعاية للفعاليات، الكرم الذي يضفيه على مشاركاته، الوعي بأهمية البصرة كمركز للعودة الدائمة لنبض اسلوبه ومناشئ لغته ووعيه بالشخصية الشعبية.

مؤسف ان يكون رحيله بهذه السرعة المؤلمة وعزاؤنا في انتاجه الذي يبقيه حيًا في ضمائر آلاف القراء الجدد.

قالوا في اسماعيل فهد اسماعيل

الروائي السوداني أمير تاج السر:

كان إسماعيل فهد إسماعيل من أشجار الكتابة الظليلة، كان كاتباً حقيقياً، استلهم تجربته من بيئته وعالمه، وطعّمها بقضايا كثيرة مهمة، واستحق أن يكون رائداً من رواد الكتابة الروائية في الخليج، وأحد الكتاب العرب المرموقين.. على المستوى الإنساني كان جميلاً وطيباً، وشهماً في احتضان التجارب الشابة.. رحم الله أستاذنا وعمنا إسماعيل.

الروائي الجزائري واسيني الأعرج :

الحبيب إسماعيل ماذا فعلت بنَا؟.. أعرف تطرف مزاجك، ولكن ليس إلى درجة الانسحابَ المبكر والفجائعي».

الروائي المصري إبراهيم عبد المجيد :

كنت أتمنى أن أبدأ يومي بخبر غير هذا.. رحيل إسماعيل فهد إسماعيل الأستاذ الذي فتنت بأعماله منذ وقت مبكر، وكانت لقاءاتي به من أجمل اللقاءات.. خالص العزاء لأدباء الكويت ولشعب الكويت وللأدباء العرب.. إلى اللقاء يا أستاذ يا عظيم.

القاص العراقي لؤي حمزة عباس :

وداعاً أيها المعلّم النبيل، هناك، حيث السماء زرقاء، مشرقة أبداً، قريباً سنلتقي، ما يخفف من ألم رحيلك أن أمك البصرة حدّثتك عن حبّها بعد عقود الجفوة والجفاء، في حين ابن بلده القاص محمد خضير: تمت رحلة الحياة والكتابة، ورسا القارب على "ضفاف" السلام البعيدة... وداعا أخا الوفاء والسخاء.

نوارس إسماعيل

مقداد مسعود

أيتها البصرة هذا ولدك إسماعيل فهد إسماعيل، ضمخيه بنوارس سبيليات وبنكهة شارع الوطن في سبعينات ما مضى وعطريه برائحة الشاي السنكين في مقهى بطرس، في البصرة القديمة. فما (يحدث أمس)، يحدث الآن أيضا و(طيور التاجي) هي طيور البصرة بتوقيت شهداء أيلول ٢٠١٨ بطبعة منقحة ومزيدة..يا إسماعيل فهد إسماعيل..لم تتوقف أقدامنا بعد ذلك الضحى في السبيليات، وأنت رايتنا إليها، قادتنا الحافلة من شيراتون البصرة في مربد ٢٠١٦، حفنة من قناديل البصرة وبغداد، أختاروا أن يكونوا معك في تلك المضافة الخصيبية الرحبة، حيث أستقبلتنا ما تبقى من هامات النخيل بشمخوها وتلك الوجوه العريقة، بطيبتها من أخوالك وذرياتهم الطيبة..ودار الكلام والقهوة دارت حول رواياتك (السبيليات /ما لم يرد ذكره من سيرة حياة أم قاسم)..في ٢٠١٨ زيارتك الأخيرة إلى البصرة، أعطيتني (صندوق أسود آخر) مخطوطتك الروائية، فاستعدت صندوق زينب في روايتك (العنقاء والخل الوفي).. تقول في ص٨١ من (صندوق أسود آخر:(لا أؤمن بالصدفة بصفتها مفتاح تحولات أخيرة طرأت على حياتي) هنا أختلف معك : البارحة أنتهيتُ من قراءتي الثانية لروايتك (صندوق أسود آخر) وأنا ارتبُ جدولة قراءتي المنتجة نقديا لروايتك هذه. هل جرى ماجرى عن طريق الصدفة؟ ألا تضمر هذه الصدفة / المصادفة، ألا تضمر في جوانيتها قوانين الضرورة؟ صفحة توقيعك لي على الورقة الأولى من المخطوطة التاريخ هو ١٧ فبراير ٢٠١٨، لماذا لم تكتمل قراءتي إلاّ البارحة؟ هل كنا نتوادع بطريقة تليق بما بيننا؟ عرفتك منذ النسخة الأولى من روايتك المدوية (كانت السماء زرقاء) وبعدها بسنوات عثرت على (البقعة الداكنة) محاولتك القصصية الأولى ١٩٦٥

ثم عرفتك شخصيا فتعمقت محبتنا لبعضنا، بتوقيت سقوط الطاغية، وصرت تزودني بمخطوطاتك الروائية قبل طبعها، وهذا كثير بالنسبة لي، وصرت تزودني أيضا بروايات مطبوعة لأخوتنا من أدباء الكويت. ما العمل؟ لقد اكتمل كتابي النقدي عن بعض رواياتك، وقد أخبرتك بذلك سابقا، لكن بغيابك أراه كتابا ناقصا، عذراً فأنا لا أزدرد هذه اللقمة الأجنبية (موت المؤلف).

إسماعيل فهد إسماعيل:

الرواية فن مؤثر لأنه يختلي بالمتلقي حتى في سرير نومه

حاوره/ حسن الفرطوسي

في الطريق إلى مكتبه، وسط مدينة الكويت، داهمتني حالة من عدم الرضا من فكرة أن يكون موضوع"الجوائز الأدبية"مدخلاً للحوار مع قامة روائية كبيرة ومنجز أدبي تخطى الأربعين كتاباً. ليس استهانة بجائزة سلطان العويس التي حاز عليها مؤخراً، إنما هناك قناعة منطقية.

في الطريق إلى مكتبه، وسط مدينة الكويت، داهمتني حالة من عدم الرضا من فكرة أن يكون موضوع"الجوائز الأدبية"مدخلاً للحوار مع قامة روائية كبيرة ومنجز أدبي تخطى الأربعين كتاباً. ليس استهانة بجائزة سلطان العويس التي حاز عليها مؤخراً، إنما هناك قناعة منطقية بضرورة بدء الحديث عن رؤاه الأدبية وأفكاره الابداعية وآخر ما ابتكرته ذهنيته العالية في آليات كتابة الرواية.. الرواية التي يصفها بأنها"الفن الأول الذي يختلي بالمتلقي دون وسيط شفاهي، ويدخل معه في سرير نومه».. لكن أحكام الضرورة تفرض نفسها أحياناً، وللحدث الثقافي أولوياته الإعلامية، هكذا افتتحت"المدى"حديثها مع الروائي الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل.

• نبدأ من مناسبة حصولك على جائزة سلطان العويس مؤخراً، كيف تراها؟

- أسعدني ذلك بالتأكيد، كونها جائزة عريقة، عمرها ٢٨ سنة تقريباً، وذات شمول على مستوى العالم العربي، ولها خصوصيات تتفرد بها، من بينها الاستقلالية وعدم ارتباطها بأية جهة رسمية، مؤسسها شاعر وقد سميت باسمه، وحتى قيمة الجائزة (١٢٠ ألف دولار) مبلغ لا يستهان به، ومن ملامح استقلاليتها وحياديتها أن مجلس أمناء الجائزة يتغير مع كل دورة، أي كل سنتين.. كما أن الاختيار لا يتم على عمل روائي محدد، وإنما تمنح لشخص الروائي عن مجمل أعماله، ويمكنني وصفها بـ»نوبل العربية"خصوصا وأن عدد المرشحين كان أكثر من ١٥٠٠ مرشح.. وتجدر الإشارة إلى إني رشحت لنيل جائزة سلطان العويس من قبل المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب منذ العام ١٩٩٤ وكان اسمي يرحّل مع كل دورة منذ ذلك الحين حتى حصلت عليها في دورتها الأخيرة عام ٢٠١٥ وهو شيء أتشرّف به كوني أراها من أنزه الجوائز فهي على الرغم من أنها جائزة خليجية لكنها غالباً ما تمنح لكتّاب من بلدان عربية غير خليجية، ولم يحصدها من الخليج سوى الشاعر البحريني قاسم حداد، كما حصل عليها القاص العراقي محمد خضير في العام ٢٠٠٤.

• كيف ترى تأثير ظاهرة الجوائز الأدبية على المنجز الثقافي العربي؟

- هي ظاهرة صحية، وأعتبرها حافزاً جيداً خصوصاً جانبها المالي، لأن غالبية الكتاب"مفلسين"عادة، وهذا النوع من الدعم يساعدهم على المواصلة. الحافز الآخر قد تمثله بعض الجوائز الأخرى مثل"بوكر"وغيرها ممن تسهم في تحقيق بعض الانتشار للكاتب من خلال الاهتمام بالأعمال الفائزة من حيث تأمين ترجمتها وتوزيعها على نطاق أوسع. كما أن تعدد الجوائز يسهم في خلق نوع من المنافسة التي قد تثري ميدان الإبداع الأدبي.. فضلاً عما يحققه تعدد الجوائز في تواصل الكتاب العرب مع بعضهم والاطلاع على تجارب بعضهم البعض، خصوصاً تلك التي تتخطى الاطار المحلي، ففي معظم البلدان العربية ثمة جوائز محلية وأخرى عابرة للحدود، في الكويت مثلاً هناك جوائز المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب خاصة بالكويتيين، بينما جوائز مؤسسة التقدم العلمي وجائزة البابطين وجائزة سعاد الصباح تشمل المحلي والعربي في ذات الوقت، والحال ذاته متشابه في بقية الدول العربية.. لكن، وهذه الـ»لكن"مدعاة للأسف، قد تتدخل أحياناً العلاقات الشخصية والتوصيات في كشف أسماء اللجان مما يترتب عليه صعود أسماء معينة وحرمان أسماء أخرى أكثر جدارة، وهذا بدوره يقود إلى الترويج إلى أدب دون المستوى.

• ما دمنا في محور حصاد الجوائز، ما الذي علق في ذاكرة إسماعيل فهد إسماعيل عنها؟

- إذا تحدثنا عن الكويت أو الخليج عموماً، فظاهرة الجوائز الأدبية ليست قديمة، في سنوات السبعينات لم تكن هناك جوائز بالمعنى المتعارف عليه، لكن هناك مبادرات تقوم بها بعض المؤسسات لدعم الإبداع، وأذكر في بداية تأسيس المجلس الوطني أواسط السبعينات، فاجأني مديره المالي آنذاك الدكتور سليمان العسكري بقرار المجلس بشراء مئة نسخة من كل كتاب من أعمالي الخمسة حينها، وسلمني مبلغا كبيرا لم أكن أتوقعه، ومن شدة فرحي سافرت خارج الكويت لإنفاقه كاملاً.. ثم جاءت جائزة الدولة التشجيعية التي تأسست عام ١٩٨٩ وكانت من نصيبي عن القصة ومن نصيب سليمان الياسين وفؤاد الشطي عن المسرح ويعقوب السبيعي ومحمد الفايز عن الشعر، ولكن ظروف الغزو أجلتها لتكون دورتها الأولى في عام ١٩٩٤. ثم حصلت على جائزة الدولة التشجيعية مرّة أخرى في مجال الدراسات النقدية عن كتاب"علي السبتي شاعر في الهواء الطلق"عام ٢٠٠٢ ومن ثم جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٤.. وحين أصدرت مسرحية"للحدث بقية"تم ترشيحي من قبل المسرح الخليجي لنيل جائزة الدولة التشجيعية، لكني اعتذرت، لأني"استحيت"أن أحوز عليها لأكثر من ثلاث مرات.

• هل تعتقد أن ظاهرة الجوائز أفرزت كتّاب رواية على مستوى من الأهمية؟

- نعم، أسهمت كثيراً، فجائزة نجيب محفوظ التي تمنح من قبل الجامعة الأمريكية في القاهرة، لفتت النظر لعدد لا بأس به من الكتاب الجيدين، لقد أفرزت اسم الروائي السوداني حمّور زيادة وهو كاتب مدهش، وقد لا تكون الجائزة تتمتع بمردود مالي كبير، لكنها تعرّف بأسماء مهمة، وهناك جائزة الطيب صالح أيضاً عرفت بأسماء مهمة، كذلك جائزة سعاد الصباح التي عرفتنا على الشاعرة سعدية مفرح وعلى القاصة ابتسام تريسي وعلى الروائي خالد خليفة الذي كان ضمن القائمة القصيرة لجائزة"بوكر"في إحدى دوراتها.

• هناك توجه كبير نحو الرواية، كيف تفسر ذلك؟

- بداية أود أن أشير إلى أن الرواية هي أول نوع أدبي يختلي بالمتلقي حتى في سرير نومه، أي أن علاقة الكاتب مع المتلقي مباشرة، دون الحاجة إلى وسيط شفاهي.. كل الأجناس الفنية الأخرى تكتب بصيغة يمكنها أن تكون شفاهية، المسرح مثلاً يكتب ليأتي طرف ثالث وهو الممثل ليقدمه إلى المتلقي، أو الشعر أيضاً ليقرأ بصوت مسموع، ولهذا لا نجد الرواية في المجتمع البدوي، وإن وجدت فتكون على شكل ملاحم يحفظها الحكواتي عن ظهر قلب، حتى لو كانت الملحمة مكتوبة أصلاً، لكنها تكتب بموسيقى وسجع يساعدان على الحفظ لضمان استمرار نقلها في مجتمعات غالبيتها لا تقرأ ولا تكتب، فلا بدّ أن يكون النقل شفاهياً.. أما الرواية بكينونتها المعاصرة فهي ابنة المدينة، إبنة المجتمع البرجوازي، وهي انعكاس لهذا المجتمع المستقر وما يعتمل فيه من حركة.. فالتوجه نحو الرواية هو نتاج انتشار التعليم وارتفاع نسبة المتعلمين.

• أيعني ذلك أننا نغادر الشعر باتجاه الرواية؟

- لا أبداً، إنما الشعر نفسه غادر أدواته الشفاهية ليلتحق بالسرد المقروء في تجربة التحول من الشعر العمودي إلى شعر التفعيلة، التي خاضها بدر شاكر السياب ونخبة روّاد الشعر الحر.. وما كان ليكتب لتلك التجربة النجاح لو أنها جاءت في زمن قبل انتشار التعليم أواسط القرن الماضي.. لكن هناك لجوءا إلى الرواية لخدمة أجناس أدبية وفكرية أخرى، ففي أيام الثورة الفرنسية لجأ فولتير إلى الرواية وهو شاعر وفيلسوف، وكذلك فريديرك نيتشة، وجان بول سارتر، صاحب الفلسفة الوجودية، كتب ثلاثية"دروب الحرية».. هؤلاء لجأوا إلى الرواية لأنهم طمعوا في كسب مساحة أوسع لإيصال فلسفتهم، فبوسع الرواية أن تبسّط الفلسفة وتقدمها إلى جمهور قد لا يكون محباً للفلسفة، لكنه يتلقاها على أنها رواية.

• يبدو أن الآيديولوجيا دخلت من البوابة ذاتها التي دخلت منها الفلسفة؟

- الحكمة التي تتمتع بها الفلسفة تجعل توظيفها في العمل الروائي سلساً وناعماً، أما الآيديولجيا فلا تستطيع إلا أن تكون مقحمة، وسيكتشفها القارئ، لا ينبغي الاستهانة بقدرات القارئ، فهو أذكى من الكاتب دائماً، دعه يستنتج، لأنك إذا أردت أن تلقنه بآيديولوجيا معينة سيكتشفك بسهولة وينفر منك حينها.. هناك فرق بين أن تكون آيديولوجياً وبين أن تكون مبدعاً يثير تساؤلات كبيرة.. حتى لو أردت أن تقول شيئاً آيديولوجياً، عليك أن تسرّبه من خلال حركة الشخوص في ملامسة شفيفة كما السحابة حين تلامس الأرض.

• ما هو تقييمك لقدرة الرواية العربية على محاكاة الواقع العربي؟

- الرواية في عالمنا العربي جاءت متأخرة، وهناك فارق زمني، ربما قرنين بين"دون كيخوته"ورواية"زينب"لمحمد حسنين هيكل، هذا لو افترضنا أنها أول رواية عربية ذات طابع فني متكامل، صحيح أن هناك روايات طبعت قبل صدور زينب، لكنها لم تكن تمتلك عناصر الرواية بشكلها المعاصر، كوحدة الزمان والمكان والحدث الدرامي وغيرها، إنما كانت تنتمي إلى الأسلوب الحكواتي القديم، ولو تفحصنا كتب الجاحظ مثلاً، نجد فيها الحس الروائي وفيها الحكاية ولكنها مكتوبة بطريقة تتناغم مع طبيعة المتذوق الأمّي، فالجاحظ لم يكن له قرّاء بأعداد كبيرة، إنما له مستمعون، فضلاً عن ذلك، كانت كتبه تنسخ باليد، ولنا أن نتخيل عدد القراء في ظل هكذا عملية معقدة؟.. وعلى الرغم من حداثة الرواية العربية، إلا أنها عملت الكثير وغيّرت الكثير، فقد أصبحت شكلاً من أشكال الحياة، لأن القارئ عادة ما يتقمص الشخصية الروائية ويعيش الحدث، ومن هنا يأتي التأثير.. وبالتالي كلما دخل الإنسان إلى المعاصرة وصارت سيادة المدينة أكثر من سيادة القرية، زادت فرصة الرواية لتفعل أكثر.

• هناك توظيف واسع للمادة التاريخية في رواياتك الأخيرة"الظهور الثاني لابن لعبون"هل اعتمدت التاريخ الرسمي، أم استفدت من مصادر تاريخية خاصة؟

- في رواية"الظهور الثاني لابن لعبون"أردت أن أستكشف جذور الإرهاب الذي تمارسه تيارات الإسلام السياسي اليوم، وقد اعتمدت مصادر تاريخية غير رسمية، خصوصاً وإني عملت سابقاً في كتابة سيناريو سينمائي عن المستشفى الأمريكاني الذي أنشئ في بداية القرن العشرين، وكذلك حين كتبت سيناريو مسلسل محسن الهزاني، أمير الشعراء آنذاك، وخلال عملية البحث لتنفيذ السيناريو اكتشفت الكثير من تفاصيل تلك المرحلة التي تتحدث عنها الرواية، من بينها حرب القصر الأحمر وهجوم الحركة الوهابية على الكويت، وقد اعتمدت على مصادر تاريخية موثوقة، من بينها ما كتبه يوسف بن عيسى القناعي، مؤسس مدرسة المباركية، أول مدرسة نظامية في الكويت، المتوفى سنة ١٩٧٣، والذي جعلته أحد شخصيات الرواية.. كما اعتمدت على عبد العزيز الرشيد الذي كتب تاريخ الكويت، وقد ذكر حادثة إباحة دم الشاعر صكر الشبيب ويوسف بن عيسى القناعي وكاتب الواقعة نفسه، عبد العزيز الرشيد.. وهكذا كنت حريصاً على توخي الدقة في توظيف التاريخ في أحداث رواية"الظهور الثاني لابن لعبون».. حتى أسماء شخوص الرواية في أغلبها أسماء حقيقية، من بينها اسم شخصية شكسبير، الحاكم البريطاني، ومن قبيل المفارقة اني عثرت من بين مدخرات العائلة على وثيقة سفر بريطانية تعود إلى جدي إسماعيل الفهد ممهورة بختم شكسبير وتوقيعه، استخرجها حين قرر السفر إلى العراق الذي كان تحت الحكم العثماني.

• كيف كانت أصداء الرواية كويتياً، على اعتبارها تحاكي حقبة من تاريخ الكويت؟

- أكثر ما فاجأني بهذه الرواية هو أن طبعتها الأولى نفدت خلال شهر واحد، وهذه أول مرة تحدث بحياتي، ونحن الآن بصدد اصدار الطبعة الثانية، ما جعلني أعود إليها مجدد وحذفت أكثر من ثلثها، أي ستكون بحدود ٤٠٠ صفحة بعد أن كانت الطبعة الأولى ٦٣٠ صفحة.

• هل هناك عمل قادم؟

- انتهيت من كتابة رواية جديدة بعنوان فرعي"ما لم يرد ذكره في سيرة حياة أم قاسم"وعنوانها الرئيسي"سبيليات"وهو اسم القرية التي ولدت بها في قضاء أبي الخصيب في البصرة وستصدر في نهاية هذا العام. والرواية تحكي قصة العجوز أم قاسم التي شهدت الحرب العراقية الإيرانية.. فهي تحية لتلك القرية وتحية للمرأة.

• خلال السنوات الأخيرة عاد اسم اسماعيل فهد اسماعيل إلى شارع الثقافة العراقي بعد قطيعة طويلة دامت لأكثر من عقدين، ما سبب تلك القطيعة؟

- هذه القطيعة كان سببها النظام السابق، فعند اندلاع الحرب العراقية الإيرانية كان لدي موقف غير معلن، لكنهم طالبوني بموقف، وأذكر أن السفير العراقي آنذاك جليل العطية دعاني على عشاء في بيته من خلال صديق مشترك وهو المخرج فيصل الياسري، وكانت جلسة لطيفة وودية، وبدأ السفير يتحدث عن حق العراق عليّ على اعتبار أن أمي عراقية وإني عشت في العراق لربع قرن، وتساءل عن سبب عدم مبادرتي في الكتابة عن الحرب، فقلت ما مفاده بأني أحب العراق ولهذا السبب أفضل عدم الكتابة، لأني لو كتبت سأدين العراق على ارتكاب حماقة الحرب، من الخطأ أن تحارب بلداً وشعبه في حالة ثورة، لأنك ستخسر حتماً.. دخول العراق في تلك الحرب ساعد على إدامة زخم الثورة الإيرانية وليس العكس. الرجل تفهم موقفي واتفقنا بأن يبقى هذا الحديث طي الكتمان.. كنت قبل هذا اللقاء ممنوعاً من دخول العراق واستمر المنع لغاية ١٩٨٩، في ذلك العام جاءني مخرج سينمائي اسمه الدكتور حسن الجنابي، وطلب روايتي"مستنقعات ضوئية"وقال أنه ينوي تحويلها إلى فيلم لصالح دائرة السينما والمسرح العراقية. وعرفت لاحقاً من خلال أصدقاء عراقيين إنه من أوائل البعثيين في العراق، ولكنه شخص مسالم ولم يؤذ أحداً طوال فترة وجوده في أوروبا، إذ كان يدرس الإخراج السينمائي في ألمانيا، وأبلغوني بأنه ليس من السوء أن أتعامل معه، فقبلت طلبه.. بعد بضعة أشهر عاد لزيارتي حاملاً السيناريو ومعه شيك مصرفي موقع وطلب مني أن أضع رقم المبلغ الذي يرضيني، فقلبت الشيك وكتبت على ظهره"تبرع لأبناء الشهداء"ووقعت.. بعد فترة وجه لي دعوة لزيارة بغداد وحين عرف إني ممنوع من الزيارة قام برفع اسمي من قائمة المنع، كما سمح لي بادراج اسم شخص برفقتي فاخترت الصديق الإعلامي وليد أبو بكر، كان يعمل في جريدة الوطن، فذهبنا إلى بغداد واستقبلنا الجنابي من داخل طائرة الخطوط الجوية العراقية بترحيب كبير.. خلال الزيارة دعانا وزير الإعلام، لطيف نصيف جاسم على عشاء في أحد المطاعم العائمة على دجلة، وخلال الجلسة طلب الوزير مني مرافقته إلى خارج المطعم وتوجه بي نحو سيارته وفتح صندوقها وأخرج حقيبة مليئة بالدنانير، قال هذا مبلغ ربع مليون دينار، هدية من السيد الرئيس كـ»مصروف جيب"فضحكت على فكرة أن يكون مصروف الجيب ربع مليون دينار في وقت كان فيه الدينار يساوي ثلاثة دولارات تقريباً. فشكرته واعتذرت عن تسلم المبلغ وقلت له"اعتبرها وصلت"فتقبل اعتذاري بعد إلحاح شديد.. ومنذ ذلك الحين انقطعت عن العراق حتى زوال النظام.

• كيف تقرأ المشهد الثقافي العراقي الحالي؟

- في العراق حالياً هيمنة دينية كبيرة، لها قدرة عالية على تحريك السواد الأعظم من الناس، وبذلك يكون دور المثقف في غاية التعقيد، لكن من الرائع أن يتحرك، أن يتكاتف، أن يعمل على إلغاء الفوارق الطائفية والعرقية، والسعي لبناء ثقافي متماسك، وأرى أن هناك حراكا ثقافيا قويا لا يمكن إغفاله، كما هو الحال في شارع المتنبي ببغداد وانبثاق شارع الفراهيدي في البصرة وأعتقد أن تجربة الشوارع الثقافية ستجد طريقها إلى جميع المدن العراقية.. من هنا يبدأ الفعل الثقافي، قد يبدأ كحراك نوعي، لكنه مع مرور الزمن سيتحول إلى كمّي، فكل التجارب العالمية هي تراكم نوعي يتحول إلى تحقق كمّي.. وعلى العموم أنا سعيد بحضور المثقف العراقي وموقفه، على الرغم من كم الخراب الذي نراه.

سبق لهذه المادة ان نشرت في صحيفة المدى

العدد (4290)
السنة السادسة عشرة - الخميس
(11) تشرين الأول 2018

في وداع شجرتي الظليلة في زمن اليباس

«بو فهد شلونك؟»

أدريك تسمعني في وقتٍ لا أنصت فيه إلى صوتك. أدريك تفهمني وأنا أبحث عن فهمٍ لمعنى رحيلك على هذا النحو، وأنا الذي ما زلت أحتفظ بقصاصة ورق كنت قد شاهدتها على سطح مكتبك في الصالحية قبل سنوات سبع. قصاصة لا تحمل إلا تاريخ الثامن عشر من أكتوبر ٢٠٤١."ما هذه بوفهد؟!». رفعت حاجبيك تضحك:"حلمت البارحة أنني أموت في هذا التاريخ». ولشدة ما أصدقك، آمنتُ بحلمك مطمئنًا. أهكذا يخونك قلبك الذي ما خان أحدًا قط؟ ألم نحتفل قبل خمس سنوات بإطفائك السيجارة الأخيرة كيلا يُنهك هذا القلب المنهك أكثر؟

سعود السنعوسي

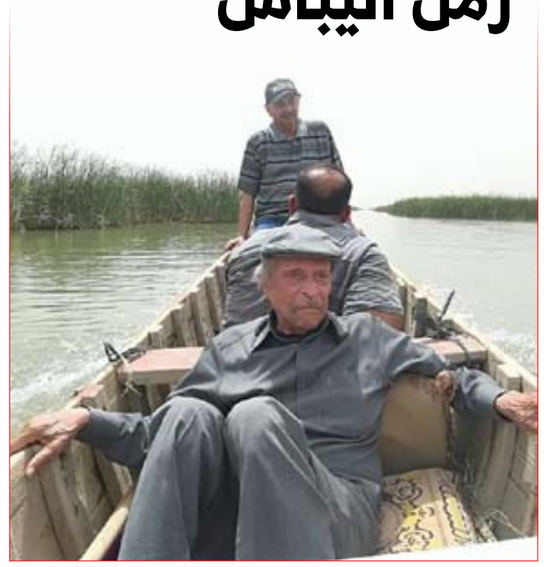

بوفهد، قبل ثماني سنوات حلمت فيك تموت على خشبة مسرح، هل تذكر؟ كنا أنت وأنا وشخصٌ آخر لا أعرفه اسمه عيسى نمثل أدوارنا أمام جمهور غفير. حملناك، عيسى وأنا، بين أيدينا إلى مستشفى مبارك ولكنك فارقت الحياة عند البوابة. استيقظت أطعن كابوسي بمهاتفتك."أبي أشوفك»، وأنا الذي لا يموت في أحلامي إلا من أحب. أجبتني كدأبك:"حياك». عانقتك أفضي لك بتفاصيل كابوسي. أجبتني تُطمئن:"هذا بس لأنك تحبني». أشرتَ إلى مخطوط"في حضرة العنقاء والخل الوفي»، تفسِّر وجود المسرح في كابوسي:"لأن الرواية تضمنت المنسي ابن أبيه في مسرح الخليج، ولأنك تفكر في رواياتي". ولما سألتك عن الشخص الثالث في الكابوس، أشرتَ إلى مخطوط ساق البامبو إلى يسارك:"هذا عيسى الطاروف». ما كان له ليكون، وما كان لي أن أكون، لو لا أنك كنت الجزء الفاعل في المشهد.

من الذي سوف يقبلني القبلة الثالثة كلما فرغت من كتابة رواية؟ أجيء بالمخطوط مطبوعًا، أعانقك، اقبلك اثنتين، تقرِّب خدَّك:"بوسة ثالثة عشان خلصت روايتك».

بوفهد تذكر؟ كنتَ صحبة رفيقك الأثير، أبي مازن، في العراق. هاتفتني وقتَ كنتُ في أبوظبي أتحرى إعلان جائزة. لم تُطل المكالمة إذ اختصرت:"اسمع.. عد بالجائزة». أجبتك بأن ما حصدته يفوق الكفاية وأنني.. قاطعتني:"اسمع.. عد بالجائزة». ولما عدتُ، كنتُ في السيارة بين أمي وأبي اللذين حضَّرا حفلا في البيت يضم أهلي.. كل أهلي. ملتُ بجذعي أمرر رأسي بينهما في المقعدين الأماميين مثل طفل:"يُبه.. ودني الصالحية». عدَّل والدي المرآة أمامي يشاهد وجهي:"ليش؟». ابتسم يشجعني وقتما أجبته:"أبي أشوف إسماعيل».

لم أنتظر وصول المصعد. ارتقيت السلالم أركض إلى مكتبك، وحقيبة السفر الصغيرة على كتفي ما زالت، مثل طفلٍ هارب من مدرسة كئيبة. لم أجدك لحظتها، ولكن نظَّارتك الطبية كانت على سطح مكتبك. سألت العاملة سَبيتا عنك فأخبرتني أنك ذهبت لتأخذ شيئًا نسيته في سيارتك. وعند مدخل البناية العتيقة، مقابل مقبرة الصالحية، رفعتَ حاجبيك دهشةً من دون أن تفوه بكلمة إزاء وجودي المفاجئ في وقتي المشغول إلا عنك. ابتسمتُ أقول لك:"جئتك من المطار، ألمِّك حتى يصير للجائزة معنى». أربكتني حينما ابتعدت بصدرك عني تبحلق في وجهي وتُمسِّد ساعديك:"وقَّفت شعر جسمي يا سعود»، ثم باعدت بين ذراعيك تعانقني.

كنت تضحك قبل يومين فقط:"بوفهد صوتك متغير!». تجيبني مهونًا:"شوية برد». أذكرك:"بوفهد لا تنسى التطعيم؟»، كان أوانه وأنت الذي تكره نزلات البرد، تتلافاها بالتطعيم السنوي في مستشفى هادي. ضحكت كثيرًا:"موعد التطعيم بعد يومين والبرد أصابني اليوم!». لم تكن نزلة برد، ولم تكن أنت. أفضيت لإقبال العثيمين قبل يومين وهي تسألك عن مزاجك، يومَ لمحت طيف حزنٍ يبدو نشازًا في ملامحك الباسمة:"ما في شي يونِّس.. لا محليا ولا إقليميا ولا عالميا». وقبل ذلك، حين تخلفت عن زيارتك لما يقارب الشهر، أرسلت لي رسالة تحمل صورة لطائريّ بوم خشبيين، وأسفل الصورة كتبتَ:"بانتظارك». تدريني أحب طائر البوم، وأدريكَ تحب الأفيال، وقد عقدنا ما يشبه اتفاقًا ضمنيًا أن أهديك فيلًا وتهديني بومة بعد عودتنا من أسفارنا. أفضيتَ لي يومها في غمرة ما يشبه حزنًا لا يشبهك:"لن أكتب».

ألهذا سارعت بالرحيل؟ ماذا عن قرائك؟ ماذا عن أحبابك بوفهد؟ وماذا عن طيور البوم في مكتبي والأفيال في مكتبك وبيتك؟ ماذا عني أنا؟ أنا المريض بالفقد، أنا القلق حتى ساعة أكون في حضرتك أبدِّد سعادة اللحظة قلقًا أفكر في يوم الرحيل. وها أنا اليوم في ساعة رحيلك أبدِّدُ حزنها باجترار ساعات ابتساماتي معك.

أجلس الآن وراء مكتبي، أمام"الركن الإسماعيلي"الذي تعرف. أجزاؤك التي تحيط مكنة خياطة جدتي؛ بورتريه، نسخة عن صورة التقطها لك يوسف خليفة، عملت منها نسختين لكلينا في أحد أسفاري، ومجسم صنعه طارق هاشم لوجهك الأحب، وإطار يضُم الصفحة الأولى من رواية"في حضرةٍ العنقاء والخل الوفي"مكتوبة بقلمك الرصاص قبل أن تعتزله وتمضي بكتابة رواياتك على الكمبيوتر، وثلاثة من طيور البوم، أحدها في قلادة نزعتها ذات يوم، صديقتك وأستاذتي، ليلى العثمان من جيدها وقالت:"لك»، والآخرين كانا هدية السفر الأخير يوم أرسلت لي:"بانتظارك».

هل تصدِّق بو فهد؟ لعلي أصدق أنك رحلت لو أنك هاتفتني:"في أمان الله أيها الجميل.. قررت أموت»، مثل كل الأفعال المجنونة التي ترتكبها ولا تسأل أحدًا، وقتَ تجيبني في كل مرَّة تُخرس عَتَبي:"بكيفي!». ولكنك لم تصرح، ولأنك لم تفعل، فإني سوف أنتظرك تبدد كابوسي:"هذا بس لأنك تحبني». أنت لم تجرح أحدًا في حياتك، ويؤلمك إن فعلت من دونٍ قصد، وكنت دائمًا ما تتصل تبرر ما لم يكن خطأً:"البارحة ما نمت.. وحياتك سعود، ضميري أنبني حينما قسوت عليك». فلم هذه القسوة اليوم إسماعيل؟

حينما استيقظت على خبر رحيلك، أمسكت بهاتفي على السرير أهاتف بكرك أسامة:"أبي أشوفه"ولم أسأله عن صحة الخبر. لملم أسامة كلماته غصبًا:"تعال البيت قبل لا توصل سيارة الإسعاف». لا أدري كيف قطعت الطريق إلى شارع المثنى. ضباب الدمع في عيني وغترتي ملقاة على المقعد إلى جواري كما لو أني أحمل لباسي كفنًا. أقود سيارتي مضيقًا عيني أحاول أن أبصر الطريق وقد نسيت نظارتي الطبية في البيت. أدوس مكبس الوقود بنعل الحمَّام كما لو أني أهشمُ رأس الموت. بين أكيد وأمنية كاذبة كنت في ممر بيتك أتحرى تكذيب خبر في وجوه أحبتك. وجه أسامة وعناقه لم يتركاً لي فسحة أمل. لم ينطق ابنك فهد بكلمة، ولكن قبضته المطبقة على كفي قالت كل شيء حين قادني إلى مقعدٍ في غرفة نومك أمام فراشك. التفت في الممر إلىٍ لوحتك الأثيرة، لوحة البحريني عبدلله يوسف"خطوة في الحلم»، ولكن خطوتي العابرة عتبة غرفتك لم تكن خطوة في حلم أبدًا. أي حزن نبيل رافق رحيلك يا أنت؟ أي صمت داهمٍ بيتك؛ الناس ولوحات الجدار والشجيرات في أصصها الحزينة، والطيور في أقفاصها مفتوحة الأبواب. كنتَ بين أحبتك، أبنائك ورفيق دربك أبي مازن. كنتُ أتوق لعناقٍ أخير ولكنك كنت مستلق على يمينك في وضعٍ جنيني كما لو كنت تعانق نًفسك التي غصَّت بمحبِّيك. أطبقت قبضتي على كتفك على سبيل عناق متاح. وأطلتُ قبلتي على رأسك تحت لحاف جبنتُ أن أرفعه. وكنت أنصتُ داخل رأسي، في صمت الحاضرين، إلى أغنية لحَّنها كوكب حمزة، وصغت أنت كلماتها:

يا صاحبي خلِّني/ يا صاحبي خلِّنا/ أدريك شايل تعب/ وأدريك حاير بنا/ والفرح، آه يالفرح/ والحزن يومه بسنة/ يا صاحبي خلِّني/ يا صاحبي.. خلِّنا.

خدشتُ هدوءك أدري، سامحني، لحظة بكيتُ وأبكيت. فأنا لا أجيد شيئًا في حضرتك إلا أن أكون ولدك وتلميذك وصديقك الهارب من صيوف الحياة الزائفة وقيظ الأيام الحزينة، أتذرى فيك شجرةً ظليلة حانية تمنحُ ولا تطلب إلا أن نكون سالمين.

فكن سالما في قلوبنا..
كن أبديًا في قلب سعود..

عن جريدة القبس الكويتية

تغريبة الفهد: (في رثاء اسماعيل)

محمد خضير

على الرغم من أنّ خبر رحيل إسماعيل فهد إسماعيل كان صادماً وصاعقاً، وهو يخلّف في يومه الخامس كدمةً في سويداء القلب، إلا أنّ للخبر تتمّة وامتداداً للحياة الباقية بعد الرحيل. فالأدباء الذين يجتمعون عمداً أو اختياراً يتضايفون ولا ينقطعون: حياةٌ تَخلف حياة، وروحاً تسند روحاً، وعموداً من الكلمات يتصاعد مِن الأجداث الممتدة حتى أفق النهاية. أنتم اليوم هنا أيضاً لتوقيع معاهدة الوفاء للراحلين، أولئك الذين لا أول لهم ولا آخِر. وبين حين وحين حكاية رحيل، ووداع حزين.

بعد وفاة محمود عبد الوهاب، جُمعت آثاره وأهديت الى جامعة البصرة. احتفظت الجامعة بالكتب وأعادت الأشياء الشخصية الى ذويه؛ وهؤلاء استخلصوا من الأشياء أخلصَها وألصقَها بنفسه – أوراقاً ثبوتية وصوراً عائلية – ووزعوا ما تبقى منها على أصدقاء الراحل الذي انقطع أمله من العائلة والحياة. يملك بعضنا قسماً من آثار الراحل – عصاه وقبعته وساعته ونظارته وأقلامه – ويملك آخرون قصاصاتٍ من أوراقه وذكرياته المدونة عن دراسته ورحلاته، إضافةً الى رسائله مع أدباء مدينته وجلاس مقهاه وأقراص مسجلة للقاءاته الصحفية والتلفازية.

بعد محمود عبد الوهاب وآخرين توزّعتهم الغبراء، سيخلّف اسماعيل فهد اسماعيل من الأشياء أثمنَها وأرخصَها، ولا أعلم كيف ستُوزَّع هذه التركة على ذويه ومؤسسات الثقافة التي خدمها الراحل أو خدمته بطبع رواياته وتصوير نصوصه التلفازية والمسرحية. ما الذي يتبقّى من الإرث المتنازَع بين الأيدي والخزانات؟ بماذا يخرج المتشاركون في حياة اسماعيل؟ الصور، الذكريات، الجلسات واللقاءات والمحاضرات؟ ما الذي سيُكتم وما الذي سيُشاع؟ وما هو أفضل وأبقى وأكثر دلالة على وجود دام ثمانين عاماً من الحركة والسكون؟ رباه! أيذهب كل هذا سُدًى، كما ذهبت آثار الأولين، وتنوهبت سرّاً وعلانية؟

لا أقوى على رسم بهاء الوجود الانساني والمباهاة بمسك طرف منه. فبين كل السِّيَر المقروءة والمسموعة عن عظماء الكتّاب والفنانين، قد تسكن طويتَنا صورةُ شخص اسمه طارش أو فرهود أو زهرة، لفظته أمواجُ الهجرة والغربة على قارعة الطريق. وهذا البهاء الخافت انطبع على نفسي عندما قرأت في كتاب لسِيَر الخطاطين عن حادثة وفاة خطّاط بغدادي شهير، استخدمه البلاط الملكي لكتابة إراداته، ثم لُفظ آخِر حياته في زاوية مسجد قديم بأحد الأزقة؛ فلما مات الخَطّاط جُمعت أقلامُه ومحابرُه ورِقاعُه وبيعت بثمن بخس في مزاد صَغير بمكان وفاته.

لا ينطبق هذا الانطباع على آثار اسماعيل فهد إسماعيل الثمينة والشهيرة، لكنه قد ينطبق من زاوية ما على غربة اسماعيل الحياتية والاجتماعية؛ هذه الغربة المتسعة التي بدأت بخروج إسماعيل من العراق الى الكويت في أواخر الأعوام الستينية الماضية، مرورا بغربته"الفلسطينية»، ثم حنينه الراجع الذي عكسَه في رواياته لموقع ولادته في قرية"السبيليات"بالبصرة.

وإزاء هذا التوزّع الهوياتي الذي أنتج غزارةً في الروايات، ومواقفَ إنسانية صادقة قلَّ مثيلها بين الروائيين العرب، كنت حائراً في تفسير الرؤى التي تراودني عنه في منامي. ففي مرة حلمتُ أنني كنت محتجزاً في قُطر غريب مع مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين، وأنّ الشخص الذي يحقق في هوياتنا هو اسماعيل المتنكر في زيّ مرقّط غريب. ولم أملك من تعبير لهذه الرؤيا المحرّفة إلا نسبتها الى الروح المشتركة بين صديقين، أحدهما مقيَّد ومقيم، والآخر حرّ ومرتحِل؛ وأنهما يودّان حقاً في تثبيت المكان ورسم حدوده الجغرافية، فمَن ينجح فعلاً في تحويل الرؤيا الى حقيقة ابداعية قبل الآخر؟

نعم. لقد نجح القسم المتحوّل عن مكانه وهويته المكتسبة في أن يغدو روائياً عَظيماً، مخلصاً لوطنه الجديد، فيما لم يستطع الآخر المقيم إلا مراودة الأحلام عسى تعوّضه بطلاقتها عن قيود الجسد واللسان. وكنت أخشى أن يحدّ الحنين من تغريبة"الفهد"وسرعته في قطع قوس الرمال الممتدّ، وأن يتبعثر بيدر العمل المضني الذي جمعه، هنا في مكان النشأة وهناك في بلد الاقامة الثانية. وكلّنا مقيم وكلّنا مرتحل، بصورة من الصور، أو حالة من الحالات.

لكنني أعترف اليوم بطبيعة اسماعيل الحساسة، المجبولة على حب الانسانية المعذبة وشمولها حالات عربية متفرقة يستطيع الانغمار في أتونها وامتصاص تأثيرها المدمر على طبيعته. فهو في مقتبل حياته احتملَ عذابَ الخروج الدراماتيكي من العراق وأفرَغه في رباعيةٍ روائية رائدة لأسلوب تيار الوعي؛ ثم شارك التغريبة الفلسطينيّة بثلاثية"النيل"إضافة الى الثنائية اللبنانية؛ وليس سهلاً عليه أن يغضّ الطرف عن زمن الغزو والاجتياح فخصَّه بسباعية"إحداثيات زمن العزلة"تتأمّل المتغيرات من زاوية آسيوية بعيدة لجأ اليها. وخلال هذا الاتساع الروائي كانت الغربة تحفر لها نفقاً في الروح المرهونة لأحلام النشأة في"السبيليات"موطن النشأة الأولى؛ فقد يكمن وراء ظهره ظلّ لشخصية مغمورة تضاف الى شخصيات"بدون"هوية تطلب إظهارها للنور. وفوق هذا قد تكون بقية مِن رفقة وذكريات تطلب استنقاذها من ظلمة الوعي وأعماقه البعيدة.

أيّ غِنى، وأيّة خطوة بعيدة، ولمسة حانية أدّتها هذه الروح الخفيفة المبتعدة دوماً عن ركود المدن وانشطار الهويات واندحار الآمال! لترقد هذه الروح مطمئنة راضية!

الكلمة التي ألقاها القاص الكبير محمد خضير في حفل تأبين الراحل اسماعيل فهد اسماعيل

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

"السبيليات" سيرة امرأة تحلم بزوج غائب في الحرب

علـي حسـن الـفـواز

تبدو رواية "السـبيليات"، للكاتب الكويتي إسـماعيل فهد إسـماعيل، كأنها"سـيرة أديسيوسـية"تحمل معها قسـوة المحـو، وشـفرات المـكان المسـتعاد، إذ يتبـدى إيهام التخييـل بوصفـه مفارقة، وعنـد هذه العتبة الموحشـة يحاول المؤلف أنْ يتقصى مستويات لعبته السردية، حيث انشـطار الأمكنة مقابل وحدة الشخصية الساردة، وحيث رحلة البحـث عن المفقود مقابل التدفـق والحرية للذات الساردة وهي تعيش شغف الرحلة.

تستغـرق البطلة، زمنـا طويلا، وهـي تساكن شغـف لحظـة توهجهـا، ولـذة إشباعهـا عـبر طقوس بحثها عـن رفـات زوجها أبـي قاسم، وعبر ما تُصيّره دالات المكـان/ السبيليات، إذ تحملها معها -الرفـات والذكرى- وكأنها حافز جنسـوي ينطوي علـى الاستغـواء، وعلى ما يشبه سردنة الواقعي السحري.

تنـدرج عتبة الاستهـلال في الرواية، الصادرة عن"نوفا بلس للتوزيـع والنشر"سنة ٢٠١٦، في سياق التوصيف الواقعي للأحداث، ولعلاقة الكاتـب الإيهامية مع حكايتهـا، وكأن سيرة أم قاسـم، هي سيرة ترصدها عين الكاميرا، أو ما يدوّنها الصحـافي في ريبورتاجه عام ١٩٨٨، عـام نهايـة الحـرب العراقيـة الإيرانية، خلال زيارته للمنطقة مع وفد إعلامي عربي للاطلاع على الدمار الذي خلّفته تلك الحرب.

سـيرة أم قاسم هي السيرة الوجودية للحرب، إذ هـي سيرة الفقد الإنساني، مثلما هي جوهر العلاقـة الغائـرة بالمكـان المفقود، لكنهـا أيضا تمثل نظرة المؤلـف/ الكاتب لوحشية الحرب، وليومياتهـا الفاجعـة. هـذه النظـرة لا تعنـي تغييبـا للواقعي والمباشـر، بل هي محاولة في إعادة تدوين التاريخ المضـاد للمكان الحربي، إذ تحضر صورُهُ الشاحبة أو ما تبقى منه.

ولعـل التفصيـل الاستذكـاري في السيـاق الروائـي يضعنـا أمـام توصيف بصـري لتلك الصور ولأثرها، ولعلاقة هـذا الأثر بهواجس الشخصيـة الرئيسيـة، حتـى تبـدو سردنـة الاستعـادة وكأنها استعـادة كاملة للحياة عبر أنسنـة تفاصيل المكان، فالبيـوت التي أفرغتها الحرب، بعـد أنْ أصدرت القيـادة العراقية في بيـان مُلزِم"مطلـوب مـن الأهالي كافـة إخلاء منازلهم خَلال مدة أقصاها ثلاثة أيام".

تحضـر بوصفها مـادة السـرد الفاعلـة، حيث تحفـل بحيـوات صغـيرة، لهـا سيميائيـات وجودية وأيروسية عبر البحث عن الماء، وعبر حلم أم قاسم بزوجها واتصالها بالآخرين عبر نبوءاته الليلية، ولها"حيل سردية"تتبدّى عبر أنسنـة المكان والموجـودات؛ الحمار قدم خير، والبيـوت العامرة بالمؤونـة، والمدافن المقدسة التي تبدو مقترحات لتجاوز الفقد، ولاستعادة الوجود.

المكان الغائب

تُحيل عتبـة العنوان إلى المكان الواقعي، لكنها تنطـوي أيضا علـى فضاء للتخييـل، وعلى ما يحفـل به مـن خصوبـة غائبـة، فالحكـي عنه يستثـير الإغـراء، ويُفضـي إلى الاستيهـام، إذ تتحـول البطلـة إلى سـاردة كاشفـة داخلية للأحـداث عـبر الأمكنة، حيـث تقـوم بوظيفة التسلـل إلى سرائرها، تنتشلها من الغياب إلى الحضور، ومن التوحش إلى الأنسنة، فاختيار المكـان/ السبيليات بوصفه مكانـا مُقترحا من الروائـي/ المؤلف يتعـالى علـى واقعيته، إلى مـا يشبه"السـرد الإروائي"حيث كـل الأشياء والتفاصيل تستدعي فكرة الخصب، وهي بنية راشحة، تُعبّر عن نفسها عبر التوصيف، وعبر الحـوار، وبمـا يجعل"المكـان الحلمي"الـذي تعيشـ ذاكرة حيواتـه دالّا علـى سحر الحياة التـي غيّبتهـا الحـرب، إذ تتبـدّى التفاصيـل وكأنهـا مؤنسنـة، وأنّ أنساقهـا الحكاية أكثر تمثـلا لهـذه الأنسنـة بـدءا من"تسحير"روح زوجهـا الـذي يأتيها كـل ليلة بنبـوءة، وليس انتهاء بحكاية الحمار (قدم خير) الذي يرافقها في رحلة عودتها الأوديسية.

التحديـق في المكان الغائب لعبـة سردية تقوم على فكـرة الاستعادة، حيث يتحـوّل إلى طاقة رمزية لتوسيع زخم السـرد، وللكشف عمّا هو عميـق في روح المكـان، فالرحلـة هـي المجسّ السـردي لتفجـير الأحـداث، ولأسطرتهـا، وللإيهـام بـأنّ الكائـن هو ابـن الأمكنـة وهو ضحيتها أيضا، وأنّ"سيكولوجيا التعويض"، كمـا يُسمّيها الناقـد محمد صابر عبيـد، تُحفّز ديناميـة السـرد علـى المزيـد مـن اصطنـاع الأحداث الموازية.

تنطـوي رحلـة أم قاسـم في المكـان إلى رحلـة إيهامية لاستدعاء الغائب، عبر تمثلات الجندي جاسـم الذي يشبه ابنهـا قاسم، وعبر مجاورة تفاصيـل الأمكنة الأثيرة، وعـبر التحديق في حكاياتها، وبما يجعـل لعبة السرد في الرواية وكأنهـا تجوهـرٌ حـول التعويضـ، وبالقـدر الـذي يُشبع غرائزهـا إزاء الفقـد الأيروسي/ المجـاورة مـع رفـات الـزوج، وإزاء الحاجـة إلى المقدسـ/ الدخـول إلى نهـر ومقـام السيد رجـب، وإزاء العطـب/ حيـث مجـاورة الماء/ الخصـب ونخلـة تمـر البرحـي، وحتـى تفقّد بيوت الجـيران الفقراء والأغنيـاء لا تعدو أن تكون محاولـة في التلصص على عالم تكتشفه لأول مرة، وتدرك من خلاله أنّ للحرب وجوها أخرى، وأنّ الحرمان والفقد هما أكثر وجوهها قسوة وبشاعة.

السارد العليم

تحمل الرواية طابع رواية المؤلف، والذي يضع حكاية أم قاسم، بوصفها حكايةً تخصُّ أمكنته الغائبة والحميمـة، إذ تتجلى عبرها هواجس الافتتـان بالحكـي عـبر أسطـرة الشخصيـة الرئيسية، حتى تبدو وكأنها الصيغة التي يحفر مـن خلالها الروائيٍ في الأحـداث، وأن يضعنا أمـام زمن مُستعاد تُهرسـ فيه الموجودات عبر الحـرب بالفقدان، وأنْ يجعـل من الشخصيات الساندة مجالا تعبيريا لتوسيـع إطار السرد، ولتبئـير فعل الرويٍ إزاء فكـرة الغائب، وإزاء ثيمة الحـرب والتمثّل السيميائي للغياب الذي تتبـدى علاماته وشروخه علـى الكائن والمكان والزمن.

فـالأولاد، وشخصيـة نائـب الضابـط صـادق والمـلازم عبدالكـريم والجندي مـازن جزء من إدارة الأحـداث، وأن ديناميـة وجودهم رهين بوجـود الأم، إذ يخضع رسم تلك الأحداث عبر حركتها، وعبرعفويـة سلوكها وهي تبحث في الأمكنة الموحشة، وتستعيد وجودها من خلال مـا يتجلى مـن وجـودٍ للآخرين الذيـن تركوا بيوتهم بعد البيـان الملزِم، والذين تحولوا إلى ضحايـا أيضا بوصفهـم يعيشـون كذلك فكرة الغياب.